معروف الرصافي والاستقلال العربي

١٩٠٨ – ١٩٢١

عبد اللطيف الطيباوي

غرض هذه المقالة توضيح ناحية في حياة الرصافي وشعره لم تنل عناية كافية حتى الآن ، وهي موقفه ظاهراً في شعره وباطناً بسكوته ، نحو محاولة العرب نيل شيء من الاستقلال الداخلي في الدولة العثمانية قبيل الحرب العالمية الأولى، ونحو الثورة العربية على تلك الدولة بزعامة الشريف حسين بن علي ، ونحو الجهاد العربي ضد الانكليز في فلسطين والعراق وضد الفرنسيس في سورية بعد انتهاء تلك الحرب .

وتمهيداً لدرس ذلك تفصيلاً لا غنىً عن إجمال المراحل الرئيسية في حياة الشاعر حتى ابتداء اشتغاله بالصحافة والسياسة . ولد في بغداد سنة ١٣٩٢ هـ / ١٨٧٥ م وتعلم أولاً في « الكُتّاب » بحسب النظام الأهلي ، ثم انتقل إلى مدرسة « رُشْدية » من مدارس النظام الجديد التي أنشأتها الدولة بعد إصدار قانون المعارف سنة ١٨٦٩ . وكان الدخول في المدرسة الرشدية جائزاً لمن أكمل مدرسة أولية من مدارس النظام الجديد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أو مدرسة أهلية من درجة « الكُتّاب » . وكانت مدة الدراسة فيها أربع سنوات أكملها الرصافي لكنه لم ينجح في امتحان السنة الرابعة ، فحيل بينه وبين الارتقاء إلى مدرسة إعدادية فسلطانية بحسب النظام الجديد . فعاد إلى النظام الأهلي وأصبح من طلاب محمود شكري الألوسي[1]، فعلّمه علوم اللغة العربية والفقه والمنطق . هذا مبلغ ما تيسر للرصافي من التعلّم ، وهو عظيم الأثر في لغته الشعرية وفي تكرار إشادته بمفاخر العرب ، وقليلُهُ في غير ذلك .

بعد أن أجازه شيخه أصبح معلماً في مدرسة أولية ، ثم تخصص بتعليم اللغة العربية في مدرسة رشدية فمدرسة إعدادية حتى سنة ١٩٠٨ ، وهي السنة التي أعاد فيها السلطان عبد الحميد العمل بالدستور ، وتولى فيها زعماء جمعية الاتحاد والترقي مقاليد الحكم في الدولة . وقد أسسوا فروعاً لجمعيتهم في عواصم الولايات كان أحدها في بغداد . وفيها صدرت جريدة رسمية بهذا الاسم باللغتين التركية والعربية ، فأصبح الرصافي من محرري القسم العربي مناصراً لجمعية الاتحاد والترقي مدافعاً عن مبادئها . لكن المشهور أن عبد الحميد أعاد العمل بالدستور مكرهاً ، وأن عدداً من العلماء آزروه خوفاً على الدين والدولة من تطرف رجال الجمعية وبينهم عدد من اليهود . فقامت ثورة في العاصمة أخمدها الجيش ، وأدى ذلك إلى خلع عبد الحميد وتولي محمد رشاد . وقد سجل الرصافي هذه الانقلابات بقصيدتين

---

(١) أحد سراة العراق وعلمائها ومؤلف كتاب « بلوغ الأرب في أحوال العرب » (ثلاثة أجزاء - بغداد : ١٣١٤ هـ) وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ضدّ استبداد السلطان وأعوانه « الأشرار »[١].

روى شاهد عيان ، وهو الشيخ محمد جلال العباسي ، لتلميذه قاسم الخطاط[٢] أن الرصافي بعد هذه الحوادث دخل على رأس جماعة فيهم عدد من اليهود والنصارى إلى جامع الوزير في بغداد في يوم جمعة والواعظ على وشك الكلام . فأسكته الرصافي واعتلى هو المنبر وحث الناس على مناصرة جمعية الاتحاد والترقي ، فاستاء المصلون وهاجوا وألفوا مظاهرة سارت إلى مقر الوالي ، فطلب رؤساؤها معاقبة هؤلاء «الكفرة» فلبى الوالي طلبهم وأمر بسجن الرصافي مع أحد أعوانه ، لكنه أطلق سراحه سريعاً بعد هدوء العاصفة . كان هذا الوالي غالباً كسائر الولاة في ذلك الوقت من أعوان الجمعية . وجريدة بغداد التي كان الرصافي أحد محرريها كانت الجريدة الرسمية للولاية ، فكان بهذه الصفة موظفاً في ديوان الوالي . ولا يستبعد أنه هو الذي دفع الرصافي إلى دخول المسجد على تلك الصورة . وحبسه لم يكن سوى تدبير موقت . وهذه القصة تدل على ضآلة أثر ما تعلمه الرصافي من الألوسي من علوم الدين ، إذ هو الذي جلب اليهود والنصارى إلى المسجد وأشركهم معه في منع حرية الوعظ فيه عاملاً بما قال في إحدى القصيدتين المذكورتين :

لقد جمعوا الجموع فمن نصارى ومن هود هناك ومسلمينا

لا شك أن ما كتبه الرصافي في جريدة الولاية كان من أسباب دعوته

---

(١) ديوان الرصافي (الطبعة السادسة . القاهرة ١٩٥٩) ص ٣٨٢ — ٣٨٨

(٢) معروف الرصافي : حياته وشعره لقاسم الخطاط وزميليه (القاهرة ، ١٩٧١) ص ٥١ — ٥٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى استانبول ، حيث اشتغل محرراً في مجلة « سبيل الرشاد » ومعلماً للغة العربية في المدرسة السلطانية التابعة لوزارة المعارف ، ومعلماً للخطابة في مدرسة الوعاظ التابعة لوزارة الأوقاف . وسرعان ما اختاره طلعت باشا وزير الداخلية ليكون معلمه الخاص في اللغة العربية ، وقربه زيادةً على ذلك فدبر تعيينه نائباً في مجلس المبعوثان (النواب) عن المنتفك دون أن ينتخبه أهلها وكان ذلك في سنة ١٩١٢ عندما أصبح الرصافي من الرجال البارزين في العاصمة . لكنه مع مناصرته لرجال الحكم من الأتراك ، ظل متحفظاً مع رجال العرب في استانبول ، وفيهم النواب والموظفون وطلاب الجامعة والمدارس العليا من مدنية وعسكرية ، وكأنه لم يشاركهم في آمالهم القومية العربية . خذ مثلاً على ذلك القصيدة التي ألقاها عليهم في حفلة عامة بعنوان « إلى الأمة العربية » فكلها تمجيد الماضي وذم الحاضر ودعوة إلى « نهضة علمية عربية » دون الإشارة تلميحاً أو تصريحاً إلى الآمال القومية .

لم يخالف الرصافي هذه الخطة مع الأتراك أو مع العرب ، لا قبل الحرب ولا أثناءها . فكان دائماً مع الدولة على كل مَنْ عاداها من الدول الأجنبية وعلى كل من خالفها من العرب ومن العبث التماس العذر له بشواذ من أبيات الشعر قد تشير إلى خلاف ذلك ، فهي أشبه شيء بالمتناقضات في كلام رجال السياسة ولا أثر لها على المبادىء الأساسية . زعم بعضهم أن الرصافي عاضد رجال الاصلاح من زعماء العرب بقصيدة « في معرض السيف » قالها بمناسبة اجتماع عقدوه في بيروت في أوائل سنة ١٩١٣ . ولكن هذه القصيدة لا تختلف في محتواها ومعناها عن القصيدتين المذكورتين أعلاه ، باقتصارها على التعميم دون التخصيص وعلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الماضي أكثر من الحاضر ، ولعدم ذكر شيء من قرارات الاجتماع ، هذا مع العلم أنه عقد بموافقة الحكومة التي أسرعت برفض جميع قراراته .

وكان هذا الرفض من أسباب عقد مؤتمر في باريس في حزيران ١٩١٣ اتخذ قرارات مشابهة كلها مطابقة للدستور وموافقة لمبادىء « الحرية والعدالة والمساواة » التي نادت بها جمعية الاتحاد والترقي . وأهم هذه القرارات : جعل اللغة العربية لغة التدريس في مدارس البلاد العربية بدلاً من التركية مع تعليم هذه كلغة ثانية ـ اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في المحاكم ودوائر الحكومة في الولايات العربية ـ اشتراك العرب مع الأتراك في إدارة الدولة وتولي الوزارة والولايه ـ إدارة البلاد العربية على طريقة اللامركزية بتقليل تدخل الحكومة المركزية في الشؤون المحلية . وبعد توسط الشريف علي حيدر والشيخ عبد العزيز شاويش قبلت الحكومة هذه المطالب في اتفاقية وقعها طلعت باشا وزير الداخلية وعبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي .

ولكن قبل توقيع الاتفاقية قال الرصافي قصيدته المشهورة «ماهكذا»[1]، وهي كما جاء في البيت الأول كلها « لوم وتثريب » مع الذم والتهم الباطلة : « لائحة خرقاء » ؛ كلفت الحكومة شططاً ؛ « خالف أصحابها الحزم والتجاريب » ؛ « تدعو إلى التعصب الديني والتفرقة بين المسلمين والنصارى » ؛ « ضجة إفساد وشر » . لكن الناظر في مطالب العرب لا يرى لهذا كله من أثر فيها ، ودليل ذلك أن الحكومة بعد تردد قبلتها . وهجوم الرصافي على بني قومه تعصب سياسي وتهوّر في الإعراب عنه .

(١) ديوان الرصافي ص ٤٠٢ – ٤٠٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لكن للرصافي سؤال في هذه القصيدة لم نجد في كل ما قرأنا عن مؤتمر باريز جواباً شافياً له : لماذا لم يعقد مؤتمر في بلاد محايدة مثل سويسرا مثلاً وعقد في باريز وهي عاصمة أمة كانت لها مطامع ظاهرة في سورية الكبرى ؟

لو كان في غير باريز تألبهم ما كنت أحسبهم قوماً منا كيبا
لكن باريز ما زالت مطامعها ترنو إلى الشام تصعيداً وتصويبا

على كل حال استنكر العرب موقف الرصافي من المؤتمر ورجاله وقراراتهم ، فرد عليهم بقصيدة فيها سب و كلام بذيء قال في نهايتها « فاشطب عليهم بنعل إنهم غلط » . لا شك أنه لم يكن جاهلاً مساعي غيره من العرب كالشريف علي حيدر ، والشيخ عبد العزيز شاويش ، والشيخ رشيد رضا ، وسليمان أفندي البستاني لتقريب مطالب العرب من سياسة رجال الاتحاد والترقي ، فلماذا لم يسلك هو هذا المسلك ؟ أشار في شعره إلى ما طلبه رجال الإصلاح ولكنه لم يحدد شيئاً منه ، وأشار إلى الجمعية التي طالبت بمبدأ اللامركزية الإدارية دون أن يسميها ، فإذا فرضنا جهله مبادىء الجمعيات السرية كالقحطانية والفتاة فلا يصح أن نفرض جهله ما كان منشوراً في الصحف ومشهوراً على الألسن . فلماذا لم يقل كلمة واحدة على الأقل في الدفاع عن اللغة العربية ؟ ولماذا وصف من أرادوا إعلاء شأنها بالشطط وبما هو أشنع من ذلك ؟ ألا يصح الاستنتاج أن تكرار التغني بماضي العرب في شعر الرصافي كان بمثابة تعويض عن تقصيره في السعي لتحسين حاضرهم السياسي أو على الأقل تحسين حال لغتهم في مدارس الحكومة ودواوينها ؟ هل كان الرصافي جاهلاً أن أبناء العرب في مدارس الحكومة كانوا يتعلمون باللغة التركية لا بلغتهم العربية ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجاءت الحرب العظمى فاتخذها الأتراك حجة لايقاف تنفيذ شروط الاتفاق مع زعماء العرب ، فوافقهم على ذلك الرصافي بسكوته واستمر يؤازرهم مؤازرة تامة . فلما أعلن الجهاد الاسلامي (١) قال قصيدة طويلة استبعد فيها أن ينجح الهجوم البريطاني على جنوب العراق ودعا إلى إنقاذ عدن ومصر من حكم الانكليز ولكنه لم يقدّر أن مصر بعد إعلان الحماية البريطانية عليها وإقامة حكم عسكري فيها لم يكن بوسعها المقاومة . وعليه فاتهام السلطان كامل حسين ورئيس الوزراء حسين رشدي باشا بالخيانة لا يستطيع المؤرخ المنصف قبوله :

قل للحسينين في مصر رُويدكما ... قد خُنتما الله والاسلام والوطنا
شايعتما الانكليز اليوم عن سَفَهٍ ... تالله ما كان هذا منكما حَسَنا
قد بِعتما الدين بالدنيا مُجازفة ... فكنتما في البرايا شرّ من غُبِنا (٢)

بمثل هذا حافظ الرصافي على مكانته عند رجال الحكم في استانبول ، وبسكوته التام عن فظائع جمال باشا في سورية وإعدامه زعماء العرب في سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦ شايعهم بزعمهم أن العرب قد خانوا الدولة وتآمروا مع أعدائها . وقد وجد غير واحد من الذين نظروا في شعر الرصافي في سكوته ، هذا من أغرب الأمور . ومع هذا ليس من الصعب تفسيره . عرّف الرصافي عدداً من الذين أعدموا ومنهم عبد الكريم الخليل ، وربما استبعد ما سمعه من اتهامهم بالخيانة ، أو ربما راودته نفسه أن يزكيهم ،

(١) نصه التركي في جريدة صباح (٦ محرم ١٣٣٣ = ٢٥ تشرين الثاني ١٩١٤) بامضاء شيخ الاسلام خيري وعدد من كبار العلماء .

(٢) الديوان ص ٤٨٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فوجد أن ذلك لا يجدي فقد ماتوا و كلامه لا يحييهم ، فلم يجرأ أن يعرّض نفسه لغضب ذوي السلطة وهو تحت رحمتهم ، فآثر السكوت .

لو سكت أيضاً عندما أعلن الشريف حسين بن علي الثورة العربية في حزيران ١٩١٦ لوجد الباحث المنصف له مخرجاً مشابهاً : سكوت عن فظائع جمال باشا يقابله سكوت عن ثورة الحسين . ولكن الرصافي لم يتغير ، وظل مع الحكام الأتراك حتى على قومه العرب ، ساكتاً ومتكلماً ، وهجاؤه للثورة العربية وخاصة للحسين أوضح برهان على ذلك . وبعض هذا الهجاء مثبت في الديوان بصورة غامضة وبعضه مروي شفهياً وسُجّل في بعض الكتب:

دع الحسينين في مصر وقد بغيا ... ففي الحجـــاز حسين ثالث لهما
هذان قد أخجل الأهرام بغيهما ... وبغي ذلك أخزى البيت والحرما
فأنت يا أرض ميدي تحته فزعاً ... ويا سماء عليـــه أمطري نقما
قالوا الشريف ولو صحت شرافته ... لم ينقض العهد أو لم يخفر الذمما (١)

وهنا يجب القول أن كثيراً من المسلمين وبعض العرب لم يناصروا الثورة العربية إخلاصاً لدولة الخلافة ومحافظة على الوحدة الاسلامية . وهذا ينطبق على زعماء مسلمي الهند ومصر وعلى نفر من العرب كالأمير شكيب أرسلان والشيخ أسعد الشقيري والسيد محمد كرد علي وغيرهم . ولكنه لم يشتهر عن أحد منهم من القول ما اشتهر عن الرصافي ، ولهـذا لم يجدوا صعوبة كما وجد هو بعد الحرب للانتقال من العمـل مع الترك إلى العمل مع العرب في الدولة التي قامت في دمشق .

(١) بعض القصيدة في الديوان ص ٥٤٥ . الأبيات الأربعة ليست فيه وقد نقلها الأستاذ قاسم الخطاط (كتابه المذكور ص ٩٠) رواية عن مؤرخ الثورة العربية أمين سعيد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واجه الرصافي هذه المعضلة حالاً بعد انتهاء الحرب . في سنتها الأخيرة سقطت بغداد ثم سقطت القدس بيد الانكليز . ولم يقل الرصافي شعراً في سقوط القدس ولكنه سجل سقوط بغداد بقصيدة « نواح بغداد » عزّى نفسه في ختامها أن الترك أعدوا لاستردادها جيشاً (وهو بلا شك جيش الصاعقة واسمه بالتركية يلدرم) جمعوه في حلب ، فقال :

بل هم اليوم عازمون على الزحف بجيش به تغصّ البطاح
كيف يُغضون عن إغاثة واد زانه من ودادهم أوضاح
فعليه من فخر عثمان تاج وله راية الهلال وشاح
أنا باقٍ على الوفاء وإن كا نت بقلبي ممّن أحب جراح (١)

لم يكن جيش الصاعقة كاسمه ، ولم يتقدم لاسترداد بغداد بل خصص لتقوية جبهة فلسطين التي كان يهددها الجيش الانكليزي إلى الغرب من نهر الأردن والجيش العربي بقيادة الأمير فيصل إلى الشرق من ذلك النهر .

وفي خريف ١٩١٨ هُزم الأتراك وأخرجوا من سورية جميعها فطلبوا الصلح الذي كان من نتائجه إقامة مندوب سام بريطاني في استانبول يملي على الحكومة العثمانية تنفيذ شروط الهدنة . بُعيد هذه الكارثة ، في أواخر ١٩١٨ أو أوائل ١٩١٩ ترك الرصافي استانبول ولكن إلى أين ؟ .

مصر بلا شك كانت مغلقة أمامه بسبب هجائه لحكامها ، والعراق كانت أيضاً مغلقة لأن جيش الاحتلال البريطاني منع دخول كل ما كان قادماً من تركيا حتى ولو كان عراقياً ، فكيف بشاعر ناصر الجهاد الاسلامي ضد الانكليز وناح بقصيدة مشهورة عندما احتلوا بغداد . فلم يبق أمامه

(١) الديوان ص ٤١٨ – ٤١٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلا سورية ؟ نعم كانت هذه البلاد أيضاً تحت احتلال عسكري بريطاني، لكنه قامت في داخلها، بموافقة بريطانيا، حكومة عربية عاصمتها دمشق ورئيسها الأمير فيصل بن الحسين. وهذه الحكومة كانت ابنة الثورة العربية، وكان جلّ رجالها من الذين حاربوا في جيشها. فماذا كان يرجو الرصافي منهم وقد هجـــاهم وهجا رئيسهم، ولم يقل كلمة على سبيل الاعتذار وطلب العفو ؟

لم يكن من المستغرب أن يُعْرض الناس عنه – من الأمير زيد رئيس الحكومة في غياب أخيه الأمير فيصل في أوربا لحضور مؤتمر السلام، إلى رجال الحكومة وفيهم من كبار العراقيين نوري السعيد وجعفر العسكري وياسين الهاشمي، إلى عدد من الأدباء والشعراء في دواوين الحكومة وفيهم الأستاذ محمد كرد علي والشيخ فؤاد الخطيب. ويكفي بياناً لما لاقاه الرصافي من الإهمال أنه لم يُدْع للعمل في مكتب الترجمة الذي أنشىء في دار الحكومة تحت رئاسة محمد كرد علي، فكان نواة المجمع العلمي العربي[1]. وهذا المجمع أيضاً لم ينتخب الرصافي عضواً فيه أثناء إقامتـه في دمشق. أما الشعر فوجده الناس كما يجبون عند الشيخ فؤاد الخطيب فسموه شاعر الثورة منذ اشتغاله وكيلاً للخارجية عند الملك حسين في مكـة ثم انتقاله إلى دمشق بجانب الأمير فيصل.

وهكذا ظل الرصافي في دمشق دون عمل، يعيش غالبـــاً على ما ادخره من أيام استانبول. ولا بيّنة على أنه نال عوناً مادياً، إلا على

(١) مجلة المجمع العلمي العربي: الجزء الأول من المجلد الأول (كانون الثاني ١٩٢١)، ص ٢ والجزء الثاني عشر من المجلد الثاني ص ٣٥٣ – ٣٥٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سبيل الاستنتاج ، من ياسين الهاشمي . فهذا مثل الرصافي ، ظل مع الأتراك حتى انكسارهم . ولكن الهاشمي كان من كبار رجال جمعية العهد السرية ، ومكانته عند العرب كانت عالية ، فلما انكسر الجيش العثماني والهاشمي أحد القواد فيه ، لم يجد صعوبة في الانتقال إلى الجانب العربي وتولى قيادة الجيش العربي في دمشق . فلما اعتقله الانكليز في تشرين الثاني ١٩١٩ قال الرصافي في ذلك قصيدته الوحيدة وهو في دمشق (١) :

ياسينُ إنك بالقلوب مشيّعُ أفأنت للوطن العزيز مودّعُ

أخذوك يا بطل المعامع غيلةً بيد الخداع ومثلهم مَنْ يخدع

تثبت هذه القصيدة أن الرصافي كان موجوداً في دمشق في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٩ وهو يوم اعتقال الهاشمي (٢) . وتثير القصيدة سؤالاً يصعب إيجادجواب حاسم له : لماذا غيّرت السلطة العسكرية البريطانية موقفها من الرصافي حالاً بعد قول القصيدة ، وما الذي جعلهم يعينونه معلماً للغة العربية في دار المعلمين الابتدائية التي أسسوها وأداروها في القدس ، وما الذي جعلهم يتجاهلون ما في القصيدة من وصف الانكليز بالخداع ونقض العهود وإنذارهم بإثارة « الهياج والمعامع والهزاهز » ضدهم؟

لا شك أن السبب في هذا كله كان سياسياً . فالانكليز الذين منعوا

---

(١) الديوان ص ٤٥٩

(٢) كان ذلك بأمر القائد البريطاني العام وبطلب من فرنسا . والقصة مذكورة في السجلات البريطانية الرسمية المحفوظة في دار الوثائق العامة في لندن تحت رقم Fo 371 - 4185

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الرصافي من العودة إلى بغداد ، سمحوا له أولاً أن يقيم في دمشق تحت حكمهم غير المباشر ، ثم أخذوه نهائياً إلى القدس ليكون موظفاً تحت إدارتهم يتناول راتباً من يدهم . فهل أرادوا إسكاته في وقت قرارهم الخطير تسليم شؤون سورية وحكومة دمشق لفرنسا ؟ لا يمكن الفصل في ذلك، لكن تصرّف الرصافي في مدة أربعة عشر شهراً قضاها في القدس يدل على أن الانكليز قد نجحوا في إسكاته .

صرّح الشاعر فيما بعد أن ذهابه إلى القدس كان بمساعي محمد كرد علي[1] . ولكن هذا مستبعد لأن المذكور تجنب تكريم الرصافي أو مساعدته احتراماً لرأي ذوي الشـــأن فيه ، ولا برهـان على أن كرد علي كانت له كلمة مسموعة عند الانكليز في فلسطين . وأقرب إلى الصواب ما رآه كاتب عراقي [2] من أن تعيين الرصافي معلماً في القدس كان بتدبير من السيّر غيلبرت كلايتون المستشار السياسي للسلطات العسكرية البريطانية في سائر سورية . وكانت إدارة معارف فلسطين من اختصاصه لأنه كان يتقن اللغة العربية وله معرفة متينة بعرب السودان ومصر وفلسطين وأصبح فيما بعد مندوباً سامياً في العراق .

ذُكر أعلاه أن الرصافي أقام بالقدس مدة أربعة عشر شهراً ابتدأت

---

(١) مجلة الثقافة الجديدة (بغداد) العـــدد الأول لسنة ١٩٥٤ ص ٢١ « الرصافي يتحدث عن نفسه » .

(٢) هو الأستاذ الدكتور صفاء خلوصي في مقال له عن « الرصافي في القدس » كتب باللغة الانكليزية ونشر مع بحوث لعدد من العلمـــاء في الشرق والغرب في كتاب عنوانه (Arabic And Islamic Garlan) طبع في لندن سنة ١٩٧٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في أول سنة ١٩٢٠ وانتهت كما سيأتي تفصيلًا في أول آذار سنة ١٩٢١. وذلك ينطبق على تصريح نشر في العدد الأول من مجلة « الثقافة الجديدة » لسنة ١٩٥٤ : « طُلب إليَّ التدريس في دار المعلمين في مدينة القدس وذلك بوساطة محمد كرد علي ... فسافرت في أواخر سنة ١٩١٩ أو أوائل سنة ١٩٢٠ على ما أذكر » .

ودّع الرصافي دمشق وداع مصدور بقصيدة « بعد براح الشام »[1]. وكان الأصح لو قال دمشق ، فالمنتقل منها إلى القدس لا يخرج من حدود بلاد الشام . وفي هذه القصيدة من المرارة وبذيء القول ما يزيد على ماجاء في قصيدة الردّ على من استنكر موقف الشاعر من مؤتمر باريز . فهذه ملأى بذم الرؤساء والحكام وأعوانهم دون استثناء . وهذه أمثلة مما فيها : خدن يُشترى بالدرهم ، مدّع في الوطنية ، عبْد في السياسة ، تكرّمني الأراذل ، مُلْكٌ في البلاد عضوض ، بلدٌ به مُقيت الأديب وأكرم العريض . ومع هذا كله يفتخر الشاعر أنه أفاض في ذكر مفاخر العرب وأنه ظل الوحيد في هذا الميدان حتى دار الزمان :

وغداً يُنازعني الحرورة شاعر ما كان حراً شعره المقروض

والشاعر المقصود هنا هو غالباً فؤاد الخطيب لأنه كان في حاشية الأمير فيصل بعد أن كان في حاشية والده الملك حسين وشعره في الثورة العربية مشهور . لكن لا مجال الآن للمفاضلة بين الشاعرين في القريض ولغته ومادته .

ذكر أعلاه وصف دار المعلمين بالقدس التي جاء الرصافي إليها معلماً

(١) الديوان ص ٤٢٠ – ٤٢٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« بالابتدائية » وهذا ترجمة من اسمها الكامل باللغة الانكليزية ، وهو ينطبق تماماً على حقيقتها . فالمعهد كان ابتدائياً في كل شيء . أنشيء في ربيع سنة ١٩١٨ لتعليم المعلمين مادة ما سيعلمونه في المدارس الأولية الجديدة وكانت مدة الدراسة فيها ستة أشهر زيدت في عهد الرصافي إلى سنة . أما مواد الدراسة فيها فكانت أولاً مبادىء صرف اللغة العربية ونحوها والقراءة والإملاء ، وثانياً مبادىء بعض الدروس الأخرى كالتاريخ والجغرافية . وسبب الاهتمام باللغة العربية أن الطلاب في دار المعلمين تعلموا سابقاً في مدارس الحكومة التركية باللغة التركية وكانوا يجهلون لغتهم العربية .

بناء على هذا لا يمكن قبول ما نُقل عن الرصافي أنه درّس « آداب اللغة العربية » ، فهذه المادة لم يكن لها وجود في برنامج دار المعلمين في ذلك الوقت . والذي يؤخذ من رواية بعض الطلاب الذين علّمهم الرصافي أن تعليمه كان قليل الجدوى . لكن الشاعر وجد في مدينة القدس أديبين هما إسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني ، رحبّا به وأكرماه . فقال فيها قصيدة « في إيلياء : إلى فاضليها النشاشيبي والسكاكيني » [1] . وإيلياء هو الاسم الروماني للقدس ، واتخاذه دون الاسم العربي الاسلامي غريب من شاعر عربي مسلم . وأغرب منه أن يخصص نحو نصف القصيدة للعودة إلى ذم دمشق ومن فيها .

والأغرب هو أن أول تكريم علني للرصافي كان حفلة أقامتها له الكلية الانكليزية [2] . وهي مدرسة أنشأتها وأدارتها جمعية تبشيرية بريطانية .

---

(١) الديوان ص ١٤٠ — ١٤١

(٢) وصف الحفلة في جريدة « مرآة الشرق » (القدس) في ١٩ أيار ١٩٢٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي الحفلة ألقى الشاعر قصيدة لعلها أتفه ما في ديوانه بعنوان : « العلم : إلى شبان الكلية الانكليزية »[1] وفيها مدح المؤسسين الانكليز وجعل مدرستهم أحسن ما في جميع بلاد الشام :

ومعهدٍ أسست قواعده في بلد شفّني هوى عربه
شيده للعلوم مدرسة مَنْ كان نشر العلوم من دأبه
تاهت به إيلياء فاخرة على دمشق الشآم أو حلبه
شكراً لبانيه ما أقام به شبانه القاطنون في قُبَبه

والقُبب هنا جاءت بها القافية ، فالمدرسة كانت في بيت جديد البناء سكنته إحدى أسر القدس المعروفة قبل أن استأجره الانكليز ولا قبب لبنائه .

ثم سكت الرصافي ستة أشهر فما الذي سكت عنه حتى كانون الأول سنة ١٩٢٠ ؟ يكفي إجماله بذكر أهم الحوادث الخطيرة في العراق وسورية وفلسطين والكوارث العظيمة التي حلت بالأمة العربية في هذه البلاد بترتيب وقوعها :

١ – في آذار أعلن المؤتمر السوري استقلال سورية بحدودها الطبيعية وانتخاب الأمير فيصل ملكاً دستورياً عليها ، وفي الوقت نفسه أعلن زعماء عراقيون في مؤتمر لهم في دمشق (لاستحالة إقامته في بغداد) استقلال العراق وانتخاب الأمير عبد الله ملكاً عليه . فرفضت بريطانيا وفرنسا الاعتراف بذلك كله .

٢ – أعلنت ملكية فيصل في القدس وذكر اسمه في خطبة الجمعة

(١) الديوان ص ٩١ – ٩٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في المسجد الأقصى بعد قرار المؤتمر السوري . وفي الأسبوع الأول من نيسان وأثناء الاحتفال الشعبي بموسم النبي موسى هزج الجمهور « فيصل يا منصور ، بسيفك هدّينا السور » وعند وصول الموكب إلى باب الخليل خطب فيه رئيس البلدية موسى كاظم باشا الحسيني . وبعد ذلك حدثت فتنة دموية بين العرب واليهود دامت أياماً وأخمدها الجيش . (كان الرصافي ساعة وصول الموكب إلى باب الخليل جالساً في مقهى حديقة البلدية على بعد نحو نصف كيلو متر !) قبل أن رافقه هناك خليل السكاكيني [1] .

٣ — عزل الانكليز موسى كاظم باشا وعينوا مكانه من كان أكثر مسايرة لهم وهو راغب النشاشيبي ، مع أن المحكمة العسكرية برأت الباشا وانتقدت عزله دون محاكمة .

٤ — في الأسبوع الأخير من نيسان قرر الحلفاء ما أرادته انكلترا وفرنسا في مؤتمر سان ريمو وهو وضع سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي والعراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني . وفي حالة فلسطين جعلت بريطانيا مسؤولة عن تنفيذ وعد بلفور بانشاء وطن قومي لليهود . وقامت المظاهرات في القدس وأعلن العرب رفض الانتداب ووعد بلفور .

٥ — في شهر أيار أعلنت الحكومة البريطانية تعيين هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني مندوباً سامياً في فلسطين لتنفيذ سياسة إنشاء وطن قومي لليهود فيها . فتجددت المظاهرات والاحتجاجات العربية .

---

(١) كذا أنا يا دنيا : يوميات خليل السكاكيني (القدس ١٩٥٥) ص ١٩٤ (تحت تاريخ ٤ نيسان ١٩٢٠)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٦ — في شهر تموز احتلت فرنسا دمشق وقضت على الاستقلال العربي وأخرجت فيصل من البلاد وأخذت السوريين بالقهر .

٧ — وفي الشهر نفسه ثار العراق على الحكم الانكليزي ثورة كلفت بريطانيا لمدة أشهر آلاف الأرواح وملايين الجنيهات .

فإذا كانت هذه الحوادث والكوارث قد هزت من الرصافي نفساً أوجرحت منه قلباً فإنها لم تُوحِ له شعراً ولم تُنطق منه لساناً . قد يُقال إنه كان موظفاً تحت إدارة بريطانية تدفع له راتباً شهرياً فلم يكن بوسعه أن يعارض سياسة حكومتها . ولكن ما الذي منعه من الاحتجاج على الفرنسيس في سورية ؟ أما كان مصير الحكومة العربية وإخراج فيصل من دمشق بالقوة جديراً بالرثاء ؟ كان فيصل نائباً عن الحجاز في مجلس المبعوثان في استانبول في الوقت الذي كان الرصافي نائباً فيه عن المنتفك . أما الأول فكان محبباً لطلاب الاستقلال من شبان العرب ، وأما الثاني فقد كرّه نفسه إليهم بموقفه من طلاب الاصلاح . ثم جاء هجاء الحسين بن علي والثورة العربية فزاد في التباعد والكراهية . وموقف الرصافي من فيصل هو امتداد لموقفه من الحسين والثورة ، وزاد هذا الموقف عند الرصافي مرارة ما لاقاه من الاهمال في دمشق وهي تحت حكم فيصل أو نائبه وأخيه زيد .

وبعد سكوت ستة أشهر قال الرصافي قصيدة كانت من أشد ما قال ألماً في نفوس العرب . وقبل تفصيل المناسبة يحسن ذكر الأثر الوحيد الذي نُشر باسم الرصافي وهو يعلّم بدار المعلمين بالقدس . وهذا الأثر هو كتيّب « الأناشيد المدرسية » لكل نشيد فيه لحنه الموسيقي بالرموز . وأحد هذه الأناشيد قصيدة للشاعر التركي توفيق فكرت كان الرصافي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ترجمها إلى العربية وهو في استانبول . والمروي أن واضع اللحن هو وديع صبرا اللبناني . ولكن لم يُذكر سابقاً أن لحن النشيد هذا ، كما نُشر مع ترجمته العربية ، هو عين لحن النشيد الوطني الفرنسي (المارسيليز). وأول من انتقد ذلك هو الأستاذ درويش المقدادي معلم التاريخ في دار المعلمين بعد عهد الرصافي ، وهذا هو النشيد (١) :

نحن خواضو غمار الموت كشافو المحن
مالنا غير اكتساء العز أو لبس الكفن
نبذل الأرواح نفديها لاحياء الوطن
هل سوى الأرواح للأوطان في الدنيا ثمن
يا ضلال الألى لم يكونوا الفدا
إن نمت نحن فلتحي أوطاننا (٢)

(١) الديوان ص ٥٥٣

(٢) كان هذا النشيد معروفاً قبل سنة ١٩١٨ ودوره الثاني كما يلي :

أنت يا أوطان من أرض حوتنا أم سما
فارفعي في أوج عليائك اللواء المعلما
وارتقي نحو المعالي واجعلينا سلما
نحن من جرّاك نجري في الوغى سيل الدّما

وأما ما ذكره صاحب المقال من أن هذا النشيد مترجم عن قصيدة للشاعر التركي توفيق فكرت بك فقد يكون صحيحاً ، ولكن الأرجح أن ما نظمه هذا الشاعر إنما كان النشيد الوطني التركي الذي مطلعه :

بر فدائي ملتزم ، مرداوغلى مرد عثمانلي يز

غير أن النشيد « نحن خواضو غمار الموت » لم يكن مترجماً عنه لأن بين النشيدين اختلافاً كبيراً في المعاني .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم ينتقد اللحن إلا بعض العـــارفين . لكن قصيدة الرصافي التي نظمها وقدّمها إلى هربرت صموئيل وقعت على العرب في فلسطين وقع الصاعقة ، لأنهم ، والرصافي بينهم ، رفضوا الاعتراف بصموئيل حاكماً عليهم ينفذ سياسة وعد بلفور بانشاء وطن قومي لليهود ، ولأنه من زعماء الصهيونية أعلن عند وصوله إلى القدس أنه مأمور بتنفيذ تلك السياسة . ولم يغير العرب هذا الموقف بل عقدوا مؤتمراً عاماً لتأكيد رفض تلك السياسة والاحتجاج عليها بارسال وفد منهم إلى لندن . وفي أثناء انعقاد هذا المؤتمر دبّر صموئيل مكيدة سياسية ظاهرها بريء وباطنها مكر وتضليل .

لا نعلم ما دُبّر في الخفاء . ولكن الحوادث كانت كما يلي : دعا راغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس إبراهام يهودا لإلقاء محاضرة باللغة العربية عن مدنية العرب في الأندلس . وكان المحاضر من يهود القدس وأصل عائلته من بغداد ، وقد مثّل يهود القدس في المؤتمر الصهيوني الأول ، ثم صار أستاذاً في جامعة مدريد . وسمع محاضرته عدد من العرب بدعوة خاصة ، وكان معظمهم من الموظفين ، كما سمعها عدد من الزعماء الصهيونيين وعلى رأسهم هربرت صموئيل ، مع أنه كان يجهل اللغة العربية . وكان الرصافي أحد الحاضرين . ومما يستدعي الانتباه أن جميع الصحف العربيـة لم تشر

= ثم إن لحن النشيد « نحن خواضو غمار الموت » يختلف عن لحن النشيد الوطني الفرنسي المعروف بالمرسيليز ، مما يثبت أنه من تلحين الموسيقي البيروتي وديع صبرا وأنه ليس منقولاً عن أي نشيد وطني آخر . وعليه فإننا نخال أن الأستاذ درويش المقدادي لم يكن مصيباً في انتقاده . « م.خ : لجنة المجلة »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى المحاضرة بشيء ، أما الصحف العبرية فوصفتها تفصيلاً[١] .

ويدل على الغرض من تدبير إلقاء المحاضرة أمران : ١) أن صموئيل ألقى خطاباً بالانكليزية تُرجم إلى العربية جملةً جملةً وعد فيه وعداً أخلفه وهو إنشاء معهد للدراسات العربية والاسلامية : ٢) كلمة لا شك في مصدرها ظهرت في جريدة التايمس [٢] تمدح روح هذا الوعد الذي لم ينفّذ وتقدح في زعماء العرب لأنهم أرادوا الاحتجاج على السياسة البريطانية في مؤتمرهم : ٣) والدليل الثالث وهو أخطرها إدخال الرصافي في أمر ليس من شأنه عدّه عرب فلسطين خيانة لا تغتفر .

هل مثّل يهودا البغدادي الأصل دوراً سرياً مع البغدادي الشاعر ؟ كيف يُفسّر قوله قصيدة ، قد تُعد من أحسن ما قال صناعة ، وتقديمها إلى هربرت صموئيل المعظم في تلك الظروف الخطيرة ؟ ما الذي جعل الرصافي يخالف أصول الضيافة العربية فيمدح عدو مضيفه ؟ ما الذي جرّأه على مخالفة إجماع عرب فلسطين دون حساب العواقب ؟ هل يعتبر اتهامهم له بأن الصهيونيين اشتروه بالدرهم حقاً أو باطلاً ؟ ما معنى إضراب الصحف العربية عن نشر القصيدة رغم أمرهم من أحد امتناء سر صموئيل ؟ وما معنى نشرها مترجمة في الصحف العبرية واعتبارها نصراً صهيونياً [٣] ؟ .

---

(١) جريدة « ها آرتس » (١٥ كانون الأول ١٩٢٠) وجريدة « دوارها يوم » (٢٠ كانون الأول ١٩٢٠) .

(٢) جريدة « التايمس » (لندن : ٢٩ كانون الأول ١٩٢٠) .

(٣) قالت جريدة « مرآة الشرق » (٢٨ كانون الثاني ١٩٢١) : « تظن جريدة « بريد اليوم » (أي دوارهايوم) بنشرها قصيدة الرصافي أنه أصبح صهيونياً . خيّطي بغير هذه المسلة » . الكلمات الأربع الأخيرة هي مثل فلسطيني يفيد النفي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تقع القصيدة في واحد وثلاثين بيتاً منها ما يلي :

خطاب يهودا قد دعانا إلى الفكر ... وذكّرنا ما نحن منه على ذكر
لدى محفل في القدس بالقوم حافل ... تبوّأه هيرْبر صَمُوئيل في الصدر
ولما تناهى من يهودا خطابه ... وقد سرّنا من حيث ندري ولاندري
تصدّى له هيرْبر صموئيل ناطقاً ... بسحر مقالٍ جلّ عن وصمة السحر
وقال وقد أصغى له القوم إننا ... سنرأب ما أثْأثْته منكم يد الدهر
ونهضكم في منهج العلم نهضةٌ ... مقوّمة ما اعوجّ فيكم من الأمر
وعدتَ فأمسى القوم بين مشكك ... ومنتظر الإنجاز منشرح الصدر
فكذّبْ وأنت الحُرّ مَنْ ساء ظنه ... فقد قيل إن الوعد دَيْن على الحر
ولسنا كما قال الألى يُتْهمونا ... نُعادي بني اسرائيل في السر والجهر
وكيف وهم أعْمامنا وإليهمُ ... يَمُتّ بإسماعيل قدما بنو فيهْر
ولكننا نخشى الجلاء ونتقي ... سياسة حكم يأخذ القوم بالقهر (١)

بعد مضيّ أكثر من نصف قرن قد يجد المؤرخ في البيت الأخير ما يشفع الرصافي ، ولكن الناس في القدس وفلسطين كلها حينئذٍ لم يجدوا فيه ولا في الاشادة بمفاخر العرب المألوفة في شعر الرصافي ما يكفر عن سيئة كبرى . فأصبح مركز الشاعر مع زملائه وطلابه حرجاً ، وأخذ الذين رحبوا به عند قدومه يتجنبونه ، ورفضت الصحف العربية (بخلاف العبرية) نشر رده على منتقديه . ومن هؤلاء اثنان جديران بالذكر مع شيء من التفصيل .

أما الأول فهو وديع البستاني ، لبناني ماروني اختار فلسطين وطناً

(١) الديوان ٤٢٩ — ٤٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

له . وقد تخرج في الجامعة الأمريكية في بيروت ومارس الكتابة ، ونظم الشعر . فلما جاء أمرُ أمين سرّ صموئيل إلى جريدة الكرمل بنشر قصيدة الرصافي تريث صاحبها نجيب نصار (وكان من أول الذين نبهوا إلى الخطر الصهيوني قبل الحرب العظمى ووعد بلفور) حتى تمكن البستاني من نظم قصيدة رداً على الرصافي تقع في أربعة وثلاثين بيتاً منها ما يلي :

خطاب يهودا أم عجاب من السحر ... وقول الرصافي أم كذاب من الشعر
ببغداد ، يا معروف ، بالأرض ، بالسما ... بربك ، بالاسلام ، بالشفع بالوتر
قريضك من دُرّ الكلام فوائد ... وأنت ببحر الشعر أعلم بالدرّ
ولكن هذا البحر بحر سياسة ... إذا مدّ فيه الحق آذن بالجزر
أجل ، عابر الأردن كان ابن عمنا ... ولكننا نرتاب في عابر البحر
أصليتَ في الأقصى صباحاً وفي المسا ... عشوت مع العاشين للرسم والذكر
ففي الحرب أبليتنا بلاءً موفقاً ... تسطر نوراً فوق ألوية النصر
وراقهم التقسيم أجراً موزعاً ... وعزّ جهاد العُرب عن ذلك الأجر
فبغداد في قُطْر ومكةُ وحدها ... وعكاءُ في قطر وصيداء في قطر
أتؤمن في بلفور بعد محمد ... وعيسى وموسى ، والوزير من الوزر
وربك لا ، فالوحي في الذكر صادق ... يكذب مافي الطرس من لوثة الحبر[1]

أما المنتقد الثاني للرصافي فهو الشيخ سليمان التاجي الفاروقي ، من علماء مدينة الرملة وسراتها ، تخرج في الأزهر ثم درس القانون وأصبح من كبار المحامين . وكان عند نشر قصيدة الرصافي في الصحف العبرية أحد أعضاء المؤتمر العربي الفلسطيني الذي اجتمع للاحتجاج على صموئيل

(١) ديوان الفلسطينيات لوديع البستاني (بيروت ١٩٤٦) ص ١٠٤ - ١١٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتنفيذ سياسة وعد بلفور . وقد نشرت كلمة الشيخ سليمان باسم « إبراهيم حقي التاجي الفاروقي » لسبب يصعب الآن اكتشافه . لكن المشهور والمنقول أن الكلمة من إنشاء الشيخ سليمان لما فيها من بلاغة القول وقوة الحجة وأدب الحوار .

ردّ الشيخ سليمان بعنوان « إلى الفاضل الرصافي المعروف » الصفحة الأولى من جريدة « بيت المقدس » . وقبل الاقتباس منه حرفياً يحسن ذكر تاريخين : ألقيت محاضرة يهودا في ١٤ كانون الأول ، وأرسل الأمر بنشر قصيدة الرصافي إلى الجرائد العربية في ٢٨ منه ، فتكون القصيدة قد نظمت بين هذين التاريخين ووصلت إلى « هوبرت صموئيل المعظم » قبيل التاريخ الثاني . وبعد ذلك نشرتها الصحف العبرية مترجمة . أما جريدة « بريد اليوم » ، وهي الطبعة العربية لجريدة « دُوار هايوم » العبرية ، فنشرت القصيدة كلها . فقامت القاصفة . ولم تكن الجرائد حينئذٍ يومية ، بل كان بعضها يصدر مرة في الأسبوع أو مرتين أو ثلاث مرات على الأكثر . وهذا سبب تأخر النشر وظهور الردود . ومعظم هذه كان قاسياً وبلهجة شديدة بخلاف رد الشيخ سليمان الذي يعد بحق مثالاً في الأدب كما هو واضح من الفقرات التالية التي نقلت حرفياً :

— « عفا الله عنك وقد أجراك الشعر قسراً في مضماره أو جرى على لسانك بما لعلك لا تحب أن تقوله » .

— « والحازم الشفيق على نفسه مَنْ لم يجنبه الناس ما لا يحبون ، هذا إذا شاء أن يصون كرامته وهذا إذا كانوا في ضلال . فما الظن بمن يأتي للحق فيقرعه في جبهته ويضربه في أرقّ موضع من نفسه إلا أن يكون ، أيها الفاضل ، ملوماً ملياً » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

— « لما انبثق نور النهضة لا نقول أكثر من أنه أدّاك اجتهادك إلى غير ما أدى إليه أمتك ... وإن اجتهادك ذاك قد أجناك ثمرة جهادك فأصبحت لدى الأتراك مبعوثاً عن بغداد » .

— « أقبلتَ إلى حاضرة الدولة العربية في دمشق ، ولعلك لم تلقَ منها ما كنت تحب ، فأرسلتَ نفثتَك المعروفة أتيت بها على كل شيء ... نفذت إلى أخلاق القوم تهجّن صحيحها وتكدّر صريحها وتنال في غير حق كريمها » .

— « هبطت هذه البلاد فأكرموا مثواك ... وأنستهم أخلاقهم الكريمة خذلانك لهم في تلك النهضة وإيثارك عليهم وظيفة النيابة . واليوم قمت ، عافاك الله ، تسدد إلى قلب ذلك الشعب ذلك السهم ... ولم يكن الناس على توقّع ذلك منك » .

— « رُحْتَ تنشر في جريدة صهيونية تعليقك على كتاب وصلك من ناشيء لم يكبح جماح نفسه ... فماذا يقول الناس يا معروف ؟ أيقولون إنك رغبت عن الأمة . . وإنك كنت تتحيّن مثل هذه الفرصة لتعلن اعتزالك لأمة تشترك معها في لغة واحدة ، وتمهد لنفسك عذراً بهذا الاعتزال وتزدرع لدى أعدائها السياسيين يداً تزدلف بها إليهم وتنال بها مرضاتهم »[1].

---

(١) بيت المقدس (٢٩ كانون الثاني ١٩٢١) . والمقصود من قوله « جريدة صهيونية » في الفقرة الأخيرة هو جريدة « بريد اليوم » . وفيها نشر الرصافي كتاباً جاءه من أحد منتقديه في مدينة نابلس مع تعليق يدل ، كما قال الشيخ سليمان ، « عما في النفس من نقمتك على الوطنيين » ، وقالت جريدة « بيت المقدس » في آخر رد الشيخ سليمان إن الرصافي عرض عليها ما نشره في « بريد اليوم » فنصحه المحرر أن لاينشره . ولم يكن بالامكان إيجاد نسخة من « بريد اليوم » في المكاتب العامة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وختم الشيخ سليمان كلمته بقوله إن بعض محبي السلام التمسوا لأقوال الرصافي بعض « المخارج » ، ومن هؤلاء بولص شحادة صاحب جريدة « مرآة الشرق » ، من أعوان راغب النشاشيبي الذي ألقيت محاضرة يهودا بدعوة منه . فاقتبس شحادة من القصيدة ما فيها ، كما في كثير من أمثالها في قصائد الرصافي ، من تمجيد العرب . فلا عجب أن التجأ الرصافي إلى « مرآة الشرق » لنشر جوابه على كلمة الفاروقي التي نشرت في « بيت المقدس » وفيما يلي دفاع الرصافي عن نفسه وبلغته :

— « ما كتبت ولن أكتب إلا ما اعتقدت وأعتقد أنه هو الصواب وإنني لم أقل شعراً إلا وأنا مندفع إليه بدافع وجداني عام ليس للمنفعة الخاصة إليه من سبيل » .

— « ولقد سمعت هذا الرجل السياسي يتكلم بكلام يشف عن حسن نية في سياسة البلاد ، ويعد مواعد يجب على القوم تقييدها عليه مهما كانت. ولقد صدر منه ذلك الكلام في محفل حافل كنت لشقوتي فيه من الحاضرين .. فكان كلام هذا الرجل السياسي عندي من البواعث والدواعي إلى قولي القصيدة المعلومة . وأنا أعتقد أن ليس فيها ما يُغْضب الحق أو يُرْضي الباطل».

وبعد أن يلخص محتوى القصيدة من أولها إلى آخرها يقول :

— « فما تنقم منه ، أيها الوطني ، وما أنا براجع عنه ، وسأقوله غداً كما قلته بالأمس إذا توفرت الدواعي إلى القول . يجوز للوطني أن يخطئني ولا يجوز له أن يخوّنني ، فإنه متى نسبني إلى الخيانة كان عندي هو الخائن لا محالة » .

— « أعْلنُ لجمهور البشر من وطنيين وغيرهم أنه من علم منهم بأنني قلت شعراً لجلب مَغْنم أو لدفع مَغْرم فدمي له هدر » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

— « بعد مدة يسيرة اطلعت على اللائحة التي وضعها طلاب الاصلاح ورأيت القوم قد عقدوا مؤتمرهم في باريز فكتبت قصيدة « ما هكذا » منتقداً خطأ القوم في لائحتهم ومؤتمرهم معاً » .

— « إني أقول لك ، ولا فخر ، لم يكن في مبعوثي العراق من هو أحق مني بأن أكون مبعوثاً » .

— « نهضة الحجاز ... عَبْثي قاومتها كما تزعم ، فأيّ ضرر حصل لها من مقاومتي ، بعد أن أصبح العرب قاطبة يتمتعون اليوم بنتائج نجاحها العظيم ، إذ أصبحت بلادهم كلها وطناً سياسياً لهم مستقلاً استقلالاً تاماً ناجزاً. أنا لم أقاوم هذه النهضة إذ لا قوة لي على مقاومتها ولكني أبرأ إلى الله منها » .

— « والسلام عليك من رجل أينما ذهب اليوم لم يجد له وطناً سياسياً ، فهو ساخط على الدنيا ومن فيها »(١) .

هذا هو الدفاع وذاك هو الاتهام ، والحكم للقارىء . وإذا جاز للكاتب أن يبدي رأياً قال إنه تذكر حالاً بعد كتابة ما سبق قول عمر بن الخطاب لعامله على مصر عمرو بن العاص ، وقد سأله في مالٍ لم يكن عنده قبل الولاية ، « كتابك إليّ كتابُ مَنْ أقلقه الحق » .

والتاريخ فيه كثير من المفاجآت . إذ بعد أربعة أسابيع من نشر دفاعه عن نفسه غادر الرصافي القدس على عجل — بدعوة من حكومة العراق وبتسهيلٍ من صموئيل الذي سمح له بترك عمله قبل تعيين خلف له في دار المعلمين . ولفهم القصة نذكر بعض التفاصيل السياسية تمهيداً .

---

(١) مرآة الشرق (٦ شباط ١٩٢١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعد أن احتل الفرنسيس دمشق وأخرجوا فيصلاً منها زحف أخوه عبد الله إلى شرق الأردن وأعلن عزمه على استرجاع دمشق . أما فيصل فقد فاوض الانكليز في لندن ، وتم الاتفاق على ترشيحه لعرش العراق على أن يتنازل عبد الله عن حقه فيه ويقبل البقاء في شرقي الأردن . وفي تلك الأثناء قامت في العراق بعد الثورة حكومة وطنية تحت إرشاد المندوب السامي البريطاني ، بخلاف فلسطين حيث كان المندوب منفذاً لحكم بريطاني مباشر . وأما شرقي الأردن فكانت في منزلة بين المنزلتين . وجاء وزير المستعمرات تشرشل للاجتماع مع المندوبين في القاهرة ومع عبد الله في القدس.

أما الحكومة العراقية فكانت برئاسة السيد عبد الرحمن الكيلاني وكان وزير الداخلية فيها طالب باشا النقيب (نائب البصرة في مجلس المبعوثان في استانبول قبل الحرب) . وكان كل منهما طامعاً في ملك العراق ، فقررا إصدار جريدة للدعاية في سبيل ترشيح عراقي لعرش العراق ومعارضة ترشيح فيصل ، فلم يجدا أصلح من الرصافي لهذه المهمة . وهذه بقية القصة بكلامه :

« اتفقوا على أني أنا الذي أتولى تحرير هذه الجريدة ، وجرى ذلك وأنا لا أعلم عنه شيئاً . وبما أني من المخالفين لطالب النقيب ، ومن الذين يبغضونه ، لم يُصْدر دعوة إليّ بهذا الشأن بنفسه بل بواسطة حكمت بك سليمان . فجاء تلغراف باسمه يدعوني إلى العراق مستعجلاً لمسائل وطنية مهمة . فكتبت إليه برقية بأي صفة تدعوني أنت ، ثم على حساب مَنْ آتي إلى العراق ، والظاهر أن طالب باشا هو الذي تولى هذا الأمر ، فطلب من المندوب السامي في فلسطين (وكان آنذاك السر هربرت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صموئيل) أن يسفّرني إلى العراق على حساب الحكومة العراقية . فاستدعاني الموما إليه بوساطة أحد موظفي المندوبية . وفاتحني بالأمر فوافقت على السفر إلى العراق »[1] .

ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن . إذ بعد وصول الرصافي بأسبوع واحد اعتقل الانكليز طالب النقيب ونفوه إلى سيلان . وبذلك سقط مشروع الجريدة ، خصوصاً لأن الكيلاني مال إلى ترشيح فيصل . وهكذا وجد الرصافي نفسه عاطلاً بلا مورد رزق . فالتجأ إلى الميس غرترود بل سكرتيرة المندوب السامي ، فأعطته كتاب توصية إلى دائرة المعارف ، ولم يكن بالامكان إيجاد وظيفة دائمة ترضيه . وظل حاله كذلك مدة فعاد كما وصف نفسه « ساخطاً على الدنيا ومن فيها » وخاصة على الملك فيصل وحاشيته . ولكن هذا فصل آخر في حياة الشاعر له مجال آخر .

عبد اللطيف الطيباوي

---

(١) مصطفى علي : الرصافي وصلتي به (بغداد ، ١٩٤٧) ص ٢٧٣ ، وأحمد مطلوب : الرصافي ـ آراؤه اللغوية والنقدية (القاهرة ١٩٧٠) ص ٤٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net